موازنة ما بين القيم التعبيرية في النص الباديسي والنص الإبراهيمي

د. محمد بن سمينة*

تود هذه الكلمة أن تتلمس طريقها في رياض آثار الإمامين : ابن باديس والإبراهيمي في محاولة لعقد موازنة ما بين القيم التعبيرية في كتابتها.

ونشير في مستهل هذه الكلمة إلى أن هذا الموضوع لم يأخذ حظه من عناية الباحثين الذين عنوا بدراسة أعمال الشيخين، فيما عدا ما كان من تناول بعض الدارسين شيئا من ذلك عند الإبراهيمي. أما ما يتصل بهذه الناحية الأدبية من آثار ابن باديس، فإن أيا ممن درسوا الشيخ -وهم كثيرون- لم يلتفتوا إلى هذا الجانب في كتاباته، و لم يخصوه بما يستحقه من البحث والدرس، ونذكر -بدافع المنهجية العلمية استثناءا من ذلك- ما كان من جهد المقل، صاحب هذه الكلمة في رسالته الجامعية عن الإمام ابن باديس، فقد كان جزؤها الكبير موضوعا لهذه الناحية الأدبية عند ابن باديس (الرسالة مخطوطة بجامعة الجزائر).

ومهما يكن فإن هذه الكلمة ليس من أهدافها، وليس من مقدورها أن يتسع صدرها للإلمام بهذا البحث، ولذلك فإن أبعد ما تتطلع إليه أن تلفت

*. أستاذ بجامعة الجزائر.

النظر إلى الموضوع، وتذكر به، فعسى أن يكون من ذلك بعض ما يحفز العزائم على تناوله بالبحث، ويغري الهمم على التعمق فيه.

ونذكر أن النقاش في هذه الموازنة سيتركز في محورين اثنين : وجوه الاتفاق في القيم التعبيرية لدى الإمامين، ووجوه الافتراق بينهما في ذلك.

أما وجوه الاتفاق فتتجلى في التقاء الإمامين، ومن ورائهما معظم الأدباء الجزائريين المعاصرين، وبخاصة منهم أدباء جيل النهضة، وأدباء جيل الخمسينات، هؤلاء الذين يلتقون جميعا على قلب رجل واحد –أو يكادون– في عملية إحياء اللغة العربية وتطويعها للتعبير عن مختلف قضايا الواقع الوطني، والحرص على الإفادة من النموذج الفني التراثي، والمحافظة على أصول العربية وعدم التساهل في قواعدها، إذ لم يعرف التاريخ من بين الأدباء الجزائريين القدامى والمحدثين من كتب بالعامية، أو شجع على نظم الشعر الملحون أو تساهل في قواعد العربية، أو قال كما قال أحدهم ذات يوم في ديار الشرق : "لكم لغتكم ولي لغتي". وإنما الذي يشهد به التاريخ أن جميع الأدباء الجزائريين كانوا يرون أن المحافظة على صحة العربية وسلامتها وخدمتها ونشرها، إنما هو مبدأ أساسي من المبادئ التي يجب الوفاء لها والثبات عليها. ويؤكد ذلك كبير شعراء الجزائر في العصر الحاضر "محمد العيد آل خليفة" فيقول :

ونقصى عن الفصحى ونلهى بغيرها وليس سوى الفصحى لسان لنارسمي

(ديوانه ص205).

ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن وجوه الاتفاق في هذا الجانب، لننتقل منه إلى الحديث عن الوجه الثاني من البحث، فماذا عن ذلك ؟

نذكر أن وجوه الافتراق في ملامح الصورة التعبيرية لدى الإمامين ترجع إلى ما يكون -بداهة- ما بين إنسان وإنسان آخر، وما بين أديب وأديب آخر من فروق فردية، نتيجة لاختلاف في الفطرة وفي الاكتساب، في الموهبة وفي الاستعداد، في المؤثرات الأسرية وفي العوامل الشخصية، في المؤهلاتِ العلمية وفي الإسهامات العملية.

إن هذه المؤثرات المختلفة تفعل فعلها في شخصية الأديب وفكره، في سلوكه وفي أسلوبه، يقول الإمام ابن باديس في هذا المضمار : "وما يباشره المرء تنطبع به نفسه ويصطبغ به خياله فيجري على لسانه في تشبيهاته وتمثيلاته وفنون قوله، فقد تختلف العبارات عن شيء واحد في وقت واحد، باختلاف نفسيات المتكلمين عليه". (آثار الإمام 358/1)

ولعل من هنا كانت مقولة الناقد الفرنسي (بيفون/ Gl.buffon 1707 - 1788م : "إن الأسلوب من الرجل نفسه/Le style est du même homme". (دفاع عن البلاغة ص 81 – أحمد حسن الزيات)

وبعد، فهذه بعض إلماعات إلى بعض المؤثرات، في وجوه الافتراق مابين خصائص الصنعة الأسلوبية عند ابن باديس والإبراهيمي، فماذا عن وجوه ذلك الافتراق نفسه ؟

نبادر بالقول إن الذي ينعم النظر في صنعة الامامين ويوازن بينهما في ذلك، يدرك أنهما يفترقان من هذه الناحية بعض الافتراق، وبخاصة فيما يتعلق من ذلك بالتلوين الشخصي، ذاك الذي يتبدى في الطعوم وفي الأصباغ، في طرق المعالجة وفي أساليب التناول، في التركيز على بعض الجزئيات طورا، وفي النظرة السريعة إلى غيرها طورا آخر، في إضفاء طابع

الموضوعية على هذا الموقف عند هذا الكاتب، وفي إضفاء لبوس الذاتية على الموقف نفسه عند أديب أخر، في الإيجاز وفي الإسهاب، في البساطة وفي التأنق، في التعبير وفي التصوير، في الإقناع وفي الإمتاع.

وأخيرا في كل ما يتعلق بطريقتهما في الكتابة، ويتصل بالصورة اللفظية التي يلبسها كل منهما أفكاره ومشاعره. وهكذا فإن الإمامين يستمدان تجربتهما من الواقع، يصدران عنه ويوردان إليه، إلا أنهما يختلفان من بعد، في التلوين الشخصي والطعوم الذاتية، يتوافقان في الجوهر ويفترقان في العرض، مما أضفى على أسلوب كل منهما مذاقه الخاص، ويظهر ذلك في جملة من العناصر :

1. بين مخاطبة العقل ومخاطبة الوجدان

كان ابن باديس يصغي إلى عقله فيحتكم فيما يقدم عليه من أعمال ومواقف إلى النزعة العقلية والروح العلمية، وبذلك يكاد يكون لسلطان العقل عنده الغلبة على توترات وجدانه، فكان لذلك ينطلق في أعماله من موقف ثابت يستخدم فيه قدراته العقلية بدقة وبفاعلية، ويحرص فيه على حسن التنظيم والترتيب، كما كان كذلك يخاطب في المتلقي عقله أكثر مما يخاطب قلبه، وقد انعكست هذه الميول على طريقة كتابته، فجاءت معظم أعماله وثيقة اللحمة في بنيتها العامة معنى ومبنى، مترابطة الأجزاء، متماسكة الأطراف، متساوقة البدايات والنهايات.

أما الإبراهيمي فكان يمتاح أفكاره ومشاعره من بحر ذاته، فيخاطب –في معظم أعماله– في المتلقي قلبه وعقله بآن، وقد تغلبه تارة عواطفه فيجاريها ويسلس لها القياد، فتذهب به بعيدا في أغوار النفس، مفصحة على مكنونات وجدانه ولواعج صدره، مما أثر سلبا على بعض أعماله

فتأتي البنية العامة بها ضعيفة الترابط، قليلة التماسك، واهية الإحكام، مما يجعل بعضها يبرز في صورة (الخاطرة) التي تتداخل فيها الأفكار وتتزاحم فيها المشاعر، ويمكن التمثيل لذلك بمقاله الشهير (تحية غائب كالآيب) السابق الذكر و(الشباب الجزائري) و(سجع الكهان) وغير ذلك من أعماله المشابهة. ينظر (عيون البصائر).

2. بين الموضوعية والذاتية

تبرز عند ابن باديس النزعة العقلية والروح العلمية والميول الموضوعية، وتكاد تختفي عنده النوازع الذاتية والتطلعات الشخصية الضيقة، وإن وجدانه لا تقدر على أن تحركه لا هذه ولا تلك، وإنما العوامل التي تقدر على ذلك وتهز ضميره، إنما هي تلكم التي تتصل بعواطف الجماعة وبالمصلحة العامة للأمة، وكان لهذا التوجه أثره على أسلوبه فغلبت عليه اللغة القريبة بدلالتها المعجمية المباشرة السهلة اليسيرة.

أما الإبراهيمي فكان يزاوج بين الموضوعية والذاتية، بين العواطف الغيرية والمشاعر الشخصية مما ساعد على بروز ذاته في أعماله وطبع صورها اللفظية بطوابع أدبية واضحة، ولعل أبرز ما يكون ذلك في مقاله (تحية غائب كالآيب) الذي كتبه بالقاهرة وأرسله إلى البصائر سنة 1953، وهو يكابد تباريح الغربة ولواعج الحنين إلى الأهل والوطن، فأطلق العنان فيه لقلمه ليفصح عما يختلج في صدره من مشاعر الحب والشوق، وقد كان يومئذ في بداية هجرته، ولم يمض على فراقه من يحب إلا سنة وبعض سنة، ولكنه كان يحس كما لو أن هذه الغربة ستطول فعاش ذلك الإحساس وجدانيا قبلما يتجسد في الواقع

عمليا (لقد شاءت إرادة الله أن تستمر غربة الإمام عشرة أعوام ابتداءا من 1952 - 1962) وليست هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي يلتفت فيها إلى ذاته ويعبر عن شعوره ويمزج بين الأنا والآخر، فإن الباحث عن هذه الظاهرة في آثاره سيعثر على الكثير من ذلك مما أتاح لشخصيته أن تبرز في كثير من نتاجه، فجاء أسلوبه لذلك طافحا باللغة الأدبية تعبيرا وتصويرا.

3. بين الإيجاز والإسهاب

إن الوفاء للروح العلمية والنزعة الموضوعية قد فرض على ابن باديس أن يميل فيما يكتب إلى الإيجاز والقصد والتعبير عن أفكاره بألفاظ مركزة وعبارات موجزة تنقل المعنى إلى المتلقي دون ما حاجة إلى شرح وتفصيل، فجاءت لذلك أعماله متوسطة الحجم، بل هي إلى القصر أقرب منها إلى الطول.

أما الإبراهيمي فكان يتميز بطول النفس والميل إلى تشقيق الكلام وتناول الفكرة من عدة جوانب، وتقليب الرأي فيها من وجوهها المختلفة، واستقصاء أجزاء الموضوع، والإلحاح على المعنى الواحد بألفاظ كثيرة، فتميزت أعماله لذلك بشيء من الإسهاب والإطناب من ذلك هذه المقالات (جمعية العلماء، التعليم العربي الحر، فصل الدين عن الحكومة، وقد أفاض في هذا العمل فبلغ به عشرين مقالا) كما تتجلى هذه الظاهرة في تناول ابن باديس موضوع العيد بعملين (خطبة ومقالة) أما الابراهيمي فقد تناول هذا الموضوع في جملة من المقالات. (ينظر عيون البصائر).

4. بين الجدية والدعابة

عرف ابن باديس بين معاصريه (إخوانه وطلبته) بالجدية والصرامة، وأخذ ما يقدم عليه من الأمور مأخذ الجد والحزم، وكان يلتزم ذلك فيما يكتب من مناقشات وردود، فاصطبغ أسلوبه بذلك فجاء مطبوعا بطوابع الحزم، خاليا من ملامح المزاح.

أما الإبراهيمي فكان يميل بطبعه إلى الظرف والدعابة (صنيع الجاحظ) فيعمد إلى النيل ممن يحاورهم ويناقشهم بشيء من التهكم والسخرية. وفي مقدمة من أصابهم بذلك حكام الاحتلال الذين يقيمون أعمالهم وسياساتهم على منطق مغلوط وافتراء مفضوح، كما أصاب بشيء من ذلك بعض الشخصيات من عملائهم، وكان يعمد إلى التعبير عن ذلك بصورة جميلة جذابة وأسلوب ساخر ساحر.

5. ما بين القيمة التبليغية والقيمة الجمالية

كان ابن باديس يتوخى في صنعته الأسلوبية قيمة التبليغ والإفهام، ولا يكاد يتطلع إلى أبعد من ذلك كأن يستهدف بأسلوبه إثارة وجدانية أو متعة فنية أو غاية جمالية، وكان حسبه من الأسلوب التعبير عن الغاية المتوخاة بلغة سليمة صحيحة فصيحة.

أما الإبراهيمي فكان يزاوج بين القيمة التبليغية والقيمة الجمالية، فيعنى بوضوح الفكرة، ويعنى بجمال الصورة المعبرة عنها بآن، ويحاول أن يسمو -فنيا- بمستوى خطابه، ويحرص على أدبيته وجماليته، ليحقق في وقت واحد غاية الإفهام ولذة الإمتاع.

6. بين القرب والإغراب

يتوجه ابن باديس بأعماله إلى العامة والخاصة، وينهج بذلك منهجا وسطا في كتابته، فيعمد فيها إلى تبسيط أسلوبه باختياره ألفاظه وتراكيبه من المعجم اللغوي المألوف، المتداولة كلماته بين طبقات المتلقين ذوي المستوى التعليمي المتوسط، ولذلك جاءت لغته مألوفة مأنوسة، بعيدة عن الإغراب، متجافية عن الإفهام لا تعوز قارئ أعماله بالرجوع إلى المعاجم لشرح لفظة من ألفاظه أو عبارة من عباراته.

أما الإبراهيمي فإن أهم ما تميز به أسلوبه من سمات، وبخاصة في أعماله التي كتبها يوم أن كان على رأس البصائر في الأربعينات، فقد مال فيه إلى العناية باستلهام النموذج البلاغي القديم واستمداد ألفاظه من المعاجم، واحتذائه في صنعته حذو اللغويين والكتاب القدامى من أمثال (الأصمعي وابن دريد والخليل والصاحب بن عباد والجاحظ وغيرهم)، وقد شهد له بهذه الثقافة اللغوية وهذه الممارسة المعجمية، بعض أصحابه من بينهم (محمد العيد)، ومما قاله في ذلك هذه الأبيات :

كان بحرا من المعارف زخـــــا ... را و ذخرا من الفنون جسيـــما
ودماغا وعى (المحيط) محيطـــــا ... ولسانـــا حوى (اللسان) قويما
كان ل (الأصمعي) و(ابن دريد) ... و(الكسائي) في الليالي نديـــما
بادل (الصاحب) الأديب نثيـــرا ... مثلما ساجل (الخليل) نظيـــمـــا

وكان من بين ما يدفع الإبراهيمي إلى هذا الأسلوب –وهو يشرف على توجيه الحركة الأدبية في الأربعينات– حرصه على تقديم النموذج الفني التراثي للكتاب لينسجوا على منواله بما يساعدهم على الإسهام فيما يقومون به من عملية إحياء العربية وبعث أساليبها القوية تفنيدا لدعاوى المحتلين بفرنسة الجزائر وفرنسة الجزائريين.

ويعلل المرحوم الدكتور "جنبدي خليفة" توجه الإبراهيمي هذه الوجهة في أسلوبه باغترافه النموذج التراثي، إلى التأثير على المتلقين، بنقلهم إلى الجو القديم المشحون بقيمهم الدينية وأصولهم الثقافية الحضارية، تنمية وتعميقا للشعور في نفوس مواطنيه، بأنهم ينتمون إلى أمة متميزة عمن يحكمونها. (المجاهد الأسبوعي 1968/05/26).

وكان على الجزائريين لذلك أن يحافظوا على قيمهم ومقوماتهم حتى ينجحوا في المحافظة على استقلالهم الشخصي الذي يعد الركيزة الأساسية على طريق حصولهم على استقلالهم السياسي.

7. بين الخيال التفسيري والخيال التصويري

كان ابن باديس لا يعنى كثيرا بالخيال لانطلاقه في أعماله من سيطرة عقلية واضحة على قدراته الشعورية، ولمعالجته قضايا حقيقية موضوعية دينية، اجتماعية، سياسية وغيرها، وهو بذلك يعد من كتاب المعاني. وكان في الوقت ذاته يحرص على أن يوائم ما بين أفكاره، وبين الصورة المعبرة عنها.

وكان لذلك إذا ما استخدم شيئا من الخيال فيكون ذلك في قصد واعتدال، ويكون من النوع التفسيري البياني الذي لا يتوخى منه في كثير من الأحيان، أبعد من توضيح المعنى وتقريبه، دونما حاجة إلى الإكثار من الصور البيانية والتنوع فيها. ومن ثم كانت النزعة التقريرية المباشرة تغلب على معظم أعماله، إلا ما جاء من بعض الصور القريبة في بعض المقاطع، في هذا الموطن، وفي ذاك من آثاره.

أما الإبراهيمي فكان يستمد بعض أعماله من ذاته، وكان يعرف أن اللغة بدلالتها المعجمية عاجزة على الإفصاح عن خلجات الوجدان، كما كان قوي الإيمان بأنه ليس هناك من لغة قادرة على الوفاء بهذا المطمح، أنجع من لغة الإيحاء والظلال والألوان، فكان لذلك لا يكتفي في هذا الجانب –صنيع ابن باديس– بالصورة الجزئية البسيطة التي تمضي كاللمحة الخاطفة، وتكاد تقتصر في مقاصدها على عنصر التوضيح فحسب، وإنما كان الإبراهيمي يتوخى بالإضافة إلى ذلك شيئا من أدبية النص، ويضفي عليه مسحة من الجمال والحيوية، فكان لذلك يختار صوره وينوع فيها، فيستمد بعضها من الواقع، ويستمد بعضها الآخر من التراث، فتأتي مشحونة بطاقة بيانية تشف عن مكنونات نفسه وتنقل تجربته إلى المتلقين نقلا جميلا مؤثرا. ويمكن الوقوف على شيء من ذلك، فيما جاء في العدد الأول من (البصائر) السلسلة الثانية الذي افتتحه بهذا الاستهلال « اللهم يا ناصر المستضعفين انصرنا، وخذ بنواصينا إلى الحق، واجعل لنا في كل غاشية من الفتنة ردء ا من السكينة، وفي كل داهمة من البلاء درعا من الصبر، وفي داجية من الشك علما من اليقين وفي كل نازلة من الفزع واقية من الثبات، وفي كل ناجمة من الضلال نورا من الهداية... ». (عيون البصائر، ص. 15)

إن النص طافح بغير قليل من الصور المعبرة عن المعنى، الموحية به، التي يأخذ بعضها برقاب بعض، متعاضدة مع بعض المقومات الصوتية للإيحاء بالمعنى المراد. وأين للدارس أن يعثر في آثار ابن باديس على مثل هذه الصور الجميلة بما تتوفر عليه من حركة وحيوية وألوان ؟.

8. بين الاحتفاء بالأسلوب المرسل والولوع بالصنعة البديعية

كان ابن باديس يترسل في أسلوبه ولا يحفل فيه بالمحسنات البديعية إلا ما جاء منها عفوا، كما يظهر شيء من ذلك في بعض خطبه وبخاصة تلك

التي كان يفتتح بها درسه الأول في التفسير في بداية كل سنة. (ينظر ابن باديس حياته وآثاره 1 / 150، 155، 161).

أما الإبراهيمي فكان يطلب ود هذه المحسنات، ويكثر منها سجعا ومجانسة، طباقا ومقابلة... وليس ذلك لتوضيح معناه فحسب، وإنما إلى إحداث جرس موسيقي طروب، من شأنه أن يضفي على العمل الأدبي جوا مفعما بالمتعة، طافحا بالجمال. وغني عن البيان أن الصنعة وهي ليست دائما مظهرا سلبيا في العمل الأدبي، وبخاصة إذا توفر لصاحبها الطبع والثقافة اللغوية والأدبية الواسعة، وقد توفر قدر غير قليل من ذلك للإبراهيمي، مما جعل تلك الصنعة عنده تحتفظ بفنيتها وجمالها، ومع ذلك كان يرى أن ما يحسن من السجع ما جاء منه عفو الخاطر يتطلبه المعنى، ويستسيغه الذوق، من مثل ما كان من ذلك في أزهى العصور الأدبية في أعمال فحول كتاب العربية : (الجاحظ وابن المقفع وابن العميد وابن عبد ربه وابن بسام وغيرهم).

«وماعدا هذا من الأسجاع، فهي غصص تتبعها أوجاع» (عيون البصائر ص 596) وكان الإبراهيمي بهذا الإحساس وبهذا الوعي، ينهج بصنعته في هذا الباب نهج بلغاء العربية، فيختار اللفظة الجزلة والجملة الموزونة، والعبارة المحبوكة، والنغمة المنسجمة.

9. بين الزهد في الجرس الموسيقي وبين الاحتفاء به

يمكن القول أن العنصر الموسيقي يعد عاملا أساسيا في تحقيق أدبية العمل الفني، مما يجعل النص النثري يسمو فنيا إلى مرتبة الشعرية، إذا ما

توفر فيه الجرس الموسيقي الذي يلعب دورا بارزا في إحداث لذة الإثارة ونشوة الإمتاع.

إلا أن ابن باديس كما رأينا -فيما تقدم- أن هاته الغاية لم تكن من أهدافه الأساسية في أعماله، إذ كان يؤثر فيها الإفهام والإقناع عن الإثارة والإمتاع، ولهذا لم يكن يعنى فيها العناية اللازمة بالإيقاع الموسيقي، باستثناء ما جاء من ذلك في بعض خطبه خاصة، نتيجة استخدامه شيئا من الأسجاع والازدواج والمجانسة.

أما الإبراهيمي فقد كان يستهدف في كثير من أعماله -إلى جانب توصيل أفكاره إلى المتلقي واضحة- غاية الإثارة والإمتاع، وكان لذلك يستعين بالعنصر الموسيقي لبلوغ ذلك المقصد الفني، ويتوسل إلى ذلك عن طريق توظيفه السجع والجناس والتكرار والازدواج، فتأتي تراكيبه موزونة، منسجمة الفواصل، متساوقة الإيقاعات، فينشأ من ذلك نغم موسيقي يساعد بتآلف أصواته العذبة على تصوير ما يريد تصويره من معاني ومشاعر، وإن الأمثلة على ذلك كثيرة في أعماله.

ونخلص إلى القول في ختام هذا البحث عن هذه الفروق الفنية -التي رأينا- ما بين القيم التعبيرية في صنعة الإمامين، إنما هي فروق طبيعية تحدث بين الأدباء في كل عصر، وترجع إلى ما يكون بينهم من الاختلاف فيما يقعون تحته من مؤثرات ذاتية وموضوعية، سبق أن ألمعنا في صلب هذا البحث إلى بعضها، وإن صدر هذا المقام لا يتسع لتفصيل القول فيها، ولذلك نجتزئ بالإلماع إليها إجمالا في هذه العوامل وهي : العامل الشخصي، العامل الثقافي، العامل الميداني، العامل السياسي، العامل الفني، وأخيرا العامل الزمني.

الخلاصة

ومما يمكن استخلاصه في ختام هذه الموازنة أن ابن باديس -بما رأينا من سمات أسلوبه التي توصل إليها البحث من خلال تحليل بعض أعماله- كان يقف موقفا وسطا بين من يبالغ من الكتاب في الدقة والوضوح والقرب، وبين من يميل في أسلوبه إلى التأنق والصنعة والإغراب، ومن ثم توفر في أسلوبه شيء من الوضوح، وشيء من الطراوة، فزاوج بذلك بين ما يذكي العقل، ويوقظ الوجدان. ويمكن أن يمثل أسلوبه بهذه الخصائص تيارا واضحا في النثر الجزائري الحديث، كان له أثره البالغ على كثير من الأدباء الجزائريين، وعلى الحركة الأدبية عموما ما بين الحربين (مرحلة النهضة) أكثر مما كان ذلك للإبراهيمي في هذه الفترة، وذلك لما كان لابن باديس في هذه الأثناء، من كثرة إسهاماته وغزارة نتاجه، والتزامه فيه بتصوير قضايا الواقع وتطلعات الأمة.

ويمكن القول من نحو آخر أن الإبراهيمي كان في المرحلة التالية (في الأربعينات) على رأس مدرسة البصائر يكاد ينفرد بالساحة الأدبية، يوجهها ويرفدها بالمدود من إبداع عبقريته، وسحر بيانه، يوجه الأدباء ويقوم النص الأدبي، ويكتب النموذج الفني البديع، بما يوفر له من تعبير جميل، وتصوير موح، وإيقاع عذب.

وكان من ذلك أن جاء أسلوب كل من الشيخين صورة صادقة لشخصيته واهتماماته، فكان ابن باديس بما فطر عليه من مزاج وموهبة واستعداد، وما تقلب فيه من وجوه الحياة المختلفة، وما انعكس من ذلك على صنعته في الكتابة، لقد كان من كل ذلك ما جعل شخصيته تتميز بما تتميز به شخصية (العالم الكاتب) الذي تغلب النزعة العلمية على ميوله، ويأتي الاشتغال بالكتابة في الدرجة الثانية من اهتماماته. وعلى أية حال

فقد كان فيما بين الحربين على رأس النهضة الوطنية، رائدا وقائدا لها في مختلف وجوهها : الإصلاحية والاجتماعية، الثقافية والسياسية...

أما الإبراهيمي فقد خلف ابن باديس على رأس هذه الحركة في الأربعينات، فسار على نهجه قائدا للنهضة العامة، إلا أن أثره على تطوير الحركة الأدبية بخاصة في هذه الفترة، كان أوضح من أثر ابن باديس عليها، فقد أحيا شباب العربية وحررها من السجع المرذول والصنعة المتكلفة، فأبدع بذلك في عصره وبيئته طريقة جديدة في الكتابة الأدبية، استطاع أن يتخلص فيها مما كانت ترسف فيه، قبل النهضة من قيود وأغلال، وأكمل ما كانت تفتقر إليه الكتابة يومئذ من أدبية وجمال، وكان ما جبل عليه الإبراهيمي غير ما جبل عليه ابن باديس، فنتج من ذلك أن ما اتسمت به صنعته من خصائص غير ما طبعت به صنعة ابن باديس من سمات، وكان من ذلك أن تميزت شخصيته عن شخصية ابن باديس فتميزت بما تتميز به شخصية (الأديب العالم) الذي تحظى الناحية اللغوية والأدبية عنده بمكانة أكبر من الانشغالات العلمية، لما فطر عليه من استعدادات وميول، فكان بذلك شيخ أدباء الجزائر في العصر الحاضر وأحد أقطاب النهضة الأدبية ليس في الجزائر فحسب، وإنما في العالم العربي الإسلامي...

وبعد، فإن هذا الموضوع الذي حاولت أن تعالجه هذه الدراسة، إنما هو أكبر من أن ينهض به مقال في صحيفة، ونحسب أنه لا يفيه حقه من الدرس والتحليل، إلا بحث بين دفتي كتاب، وأنى لنا ذلك في غمرة هذه الأزمة الخانقة التي تعاني منها عملية النشر في بلادنا ؟ ومهما يكن من ذلك، فإن بارقة الأمل تظل تغمر القلوب، بأن تتوجه الإرادات المخلصة، وتمتد الأيدي الكريمة ذات يوم، لتخرج آثار أعلام الأمة، وأبحاث المعاصرين من الظل، وتدفع بها على طريق النور والحياة، وإن غدا لناظره قريب...